﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: 130]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إذا علمت أنّهم مُعَذَّبون لا مَحالة، فاصبر على ما يقولون، واشكر الله على نِعَمه

بعد أن ذَكَرَ اللّهُ ﷻ عذابَ مَن أسرفَ ولم يؤمن بالحقّ، وأنكرَ على الكفّار عدمَ الاعتبار بحال الأمم السّابقة، وما أصابهم مِنَ العذاب اللّازم لكلِّ مَن كفر، مع أنّهم يَمشون في مَساكِنِهم، بل اغترُّوا فسألوا الرّسولَ تعجيزًا أنْ يُعجِّلَ لهم بالعذاب، فأعلمَهُم أنّه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ[1]، فقد سبقَت كلمةٌ مِن ربّك، وتأخَّرَ الهلاك إلى أجلٍ مُسمًّى، أمرَهُ بأن يَصبرَ على ما يقولون، وألّا يَحفِلَ بذلك[2]، وأن يَطمئنّ لذكر ربّه[3]، فإنّ علمَه ﷻ بأنّهم معَذَّبون لا مَحالةَ ممّا يُسلّيه ويَحمِلُه على الصّبر.

كما أنّ في الآية أمرًا بشُكر النِّعم بعد ذكرِها وبيانِها، فإنّه لمّا أخبر اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ في الآية السّابقة أنّه لن يُهلِكَ أحدًا من كفّار هذه الأمّة قبل استيفاء أجله تَفضُّلًا على هذه الأمّة وتكريمًا لنبيّها ﷺ، جاء الأمر في هذه الآية بالصّبر على ما يقولون في إيذائه وإيذاء أصحابه، وحثّه على بلاغ الدّعوة إليهم، وألّا يكونَ ما يَصدُرُ منهم مِنَ الإيذاء صارفًا له عن بلاغ الدّعوة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾: أُخِذ معنى ﴿طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ مِن طلع؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 69.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 337.

أي: بَدا مِن علٍ[1]، وظَهَرَ وبَرَزَ[2]، فطلوع الشّمس هو بروزها وظهورها، والمقصود بذلك وقت الشّروق، فإذا أشرقَتِ الشّمسُ فقد طلعَت على الوجود، والمعنى المقصود مِن قوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾؛ أي: قبلَ شروقها؛ أي: من طلوع الفجر إلى الشّروق.

2) ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ﴾: أصلُ كلمة ﴿ءَانَآيِ﴾ مِن أنَى الشّيء يَأني إنىً؛ أي: حان وأدرك[3]، وأُطلِقَ الإنى على الزّمن، كالسّاعة والحين؛ فالسّاعة إنْي[4]، وجمعها آناء[5]، ومنه جاء معنى الأناة؛ أي: الحِلم، وهو التّريّثُ لأخذ زمنٍ للتّأمُّل والتّدبُّر قبل اتّخاذ المَوقِف[6]، وآن الشّيء حان وقَرب[7]، والمقصود بآناء اللّيل في الآية ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾؛ أي: لحظات اللّيل وساعاته، فاتّخِذْها زمنًا للتّسبيح والحمد.

3) ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾: الأطراف جمع طرَف، وهو جانب الشّيء[8] ومنتهاه[9] وحَدّه وحَرْفه[10]، وأطراف الشّيء نواحيه[11] ونهاياته وأجزاؤه، والنّهار هو جزء اليوم، ويكمِّلُهُ اللّيلُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـــن أراد أن يبلِّغَ ديـنَ الله فليتسلَّح بسلاح الصّبر، وليُكثِر مِن عبادة مولاه

أمر اللّه رسوله الكريم في هذه الآية بالصّبر على إيذاء الكفّار له كقولهم: ساحر، وشاعر، ومجنون، وألّا يعبأ بمَقالَتِهم، وعليه

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طلع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (أنى).
(4) أبو عبيد، مجاز القرآن: 2/ 33.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (أنى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).
(7) الرّاغب، المفردات: (أنى).
(8) الرّاغب، المفردات: (طرف).
(9) مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (طرف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طرف).

أن يَستحضِرَ كمالَ اللّه سبحانه حامدًا شاكرًا، مُقيمًا للصّلوات المفروضة بين آناءِ اللّيل وأطرافِ النهار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء:

إمهال الكفّار يُلازمُه الصّبر

بدأتِ الآيةُ الكريمةُ ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ بالفاء، وهي فاء الفصيحة[1]؛ لأنّها أفصحَت عن جواب شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديره: إذا عرفتَ أنّ إمهالَ الكفّار وتأخيرَ هلاكهم إلى أجلٍ مُسمًّى - مع لزومه- ، بكلمةٍ سبقَت من ربِّك، فإنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾[2]على ما يقولون.

ويجوز أن تكون الفاءُ للسّببيّة؛ لأنّ عدمَ عذابهم عاجلًا سببٌ للأمر بالصّبر أو سببٌ لنفس الصّبر؛ أي: عدم القلق لِما وقَعَ مِن كفّار مكّةَ مِنَ الأذى لرسول اللّه ﷺ وصحابته الكرام[3].

دلالة الأمر بالصّبر:

الصّبرُ علاجٌ ربّانيٌّ لرسول الله ﷺ في تحمُّل أذى المشركين

جاء الأمرُ بالصّبر خطابًا لرسول اللّه ﷺ في قوله ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وللأمر بالصّبر دلالاتٌ؛ جُماعُها هو عدمُ القلق والحزن لِما صدر عنهم، سواء أكان طلبًا بتعجيل العذاب فيضيق الصّدرُ لعدم إجابة سؤالهم؛ فاصبِرْ ولا تكلِّفْ نفسَك فوق طاقتها[4]، أم كانت تلك الأقاويل الشّائنة الّتي صدرَت منهم سخرية بالرّسول ﷺ وبرسالته وبالّذين آمنوا به واتَّبعوه، وكلُّ ذلك ممّا يَزيدُ الغمَّ لعدم إيمانهم؛ فاصبِرْ فلا تغتمَّ، أو إنّ ذلك ممّا يَبعَثُ على اليأس منهم؛ فاصبِرْ ولا تصرفْك أقاويلُهُم عن مُهمّتك[5].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 168.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 366.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/ 525.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 113.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾:

العموم والشّمول لكلّ ما قاله الكفّار

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ باسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وهو مِن ألفاظ العموم، ليَعُمَّ كلَّ مَقولَةٍ قالَها الكفّار[1]، سواء أكانت تعجيزًا للرّسول أن يُعجِّلَهم بما يَعِدُهم مِنَ العذاب، أم قدحًا في شخصه بأنّه ساحر أو كاهن أو مجنون، أو كلمة الكفر بدل الإيمان، وغيرها مِنَ الأقاويل السّيّئة.

ولا يتأتّى هذا العموم إلّا من حرف ﴿مَا﴾ فتشمل كلَّ ما قيل، وإبهام ﴿مَا﴾ يحمِلُ على السّكوت عن تكرار ذكرها ليَتَّجِهَ الخطابُ إلى المَوقِف الأنسب منها؛ وهو الصّبر والأنس باللّه ﷻ.

هذا تسلية لرسول اللّه ﷺ لِتحمُّلِ أداء الرّسالة وبلاغها إلى المُعانِدين.

دلالة التّعبير بالقول:

أصل الأذى ومبدؤه بالقول

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالصّبر على أقوال المشركين الّذين يُؤذون رسول اللّه ﷺ بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ مع أنّ أذاهم لم يَقِفْ عند حيّز القول، بل تعدّاه إلى الفعل الجسديّ والنّفسيّ، ووقائع السّيرة تَنطِقُ بذلك من نحو وضع سلا الجَزور على ظهره ﷺ، لكن لمّا كان كلُّ ذلك يأتي بعد القول، خصّه القرآن بالذّكر.

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

تجدُّدُ أقاويل الكفّار واختلاف صورها

عبّرَتِ الآيةُ الكريمةُ عمّا صدر مِن أقوالٍ عنِ الكفّار بصيغة الفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾؛ وذلك لدلالته على التَّجدُّد والاستمرار، فكأنّ الآيةَ تنُوح عليهم كثرةَ أقاويلهم، ففي كلّ مرَّةٍ يفْتَرون قولًا مُختلِفًا عمّا سبق بل يناقضه، وهو ما يُظْهِرُ إسرافهم واستمرار صدِّهم عنِ الحقِّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 366.

عود الضّمائر في قوله ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

بلاغة القرآن في تعيين المراد

وفي الآية الكريمة ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ضميران، ولكلٍّ منهما مَرجِعٌ، فالمُخاطَبُ بالأمر ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ هو سيّدُنا محمّد ﷺ، وهو المخاطَب الأوّل بالقرآن الكريم، بينما عاد ضمير الجمع في ﴿يَقُولُونَ﴾ إلى كفّار قريش[1].

والضّميرُ يحمِلُ معه الإحالةَ إلى دلالاتٍ مُتعلِّقةٍ بصاحبه، فضمير (أنت) الّذي يعود إلى الرّسول ﷺ، يَربِطُ الأمرَ بالصّبر من ربّه الّذي سبقَت كلمتُهُ بإمهال الكفّار تشريفًا للمصطفى ﷺ، وأصحاب ضمير الجمع ﴿يَقُولُونَ﴾؛ وهم كفّارُ مكّةَ، يُرَدِّدون الأقاويلَ السّيّئةَ في الحقِّ ﷻ وفي رسوله ﷺ؛ فاستحضارُ كلِّ تلك المعاني من خلال الضّمائر، هو الّذي يبرِّرُ الأمرَ بالصّبر.

دلالة تعدي فعل الصّبر بـ﴿عَلَىٰ﴾:

علوّ صبر الأنبياء على كلّ إيذاء

تعدّى الفعلُ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للدّلالة على تمكُّنِ الصّبر في شخصه ﷺ مع كثرة أقوالهم المذمومة وعباراتهم المسمومة الّتي تؤذي رسولَ الله ﷺ في خَلْقه وأخلاقه، حيثُ استهزؤوا وسخروا، ومع ذلك كان الصَّبرُ من رسول الله ﷺ علامةً بارزةً في دعوته لهم.

فائدة عطف التّسبيح على الأمر بالصّبر:

التّسبيح علاج لضيق الصّدور

عُطِفَ التّسبيحُ على الأمر بالصّبر في الآية: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لوجود اشتراكٍ بينهما في العلاج؛ فالصّبرُ علاجٌ في تحمُّلِ كَذبِ المُكذِّبين وعناد المشركين.

والتّسبيحُ علاجٌ روحانيٌّ في تقوية القلب؛ لأنّه إذا قَوِيَ القلبُ قَوِيَ البَدنُ؛ فالجامِعُ بينهما تقويةُ البَدن والقلب.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 398.

وعلى هذا تَظهَرُ فائدةُ هذا العطف في الجمع بينهما؛ فذِكرُ اللّه يُشعِرُ بالاطمئنان، وهو أكبرُ داعٍ للصّبر[1]، ولأنّ الصّبرَ تحمُّلٌ سلبيٌّ، فيأتي التّسبيحُ ليسَلّي ويُنسي تلك الأقاويل، وذلكم الصُّدود[2]، وهذا المعنى ظاهرٌ في حديث النّبيّ ﷺ، وهو يقول لفاطمة ابنته، وقد شكَت له ما تجد من مَشقَّة الرّحى عند طحنها لطعامها وطعام بنيها: "إذا آويتِ إلى فراشك فقولي سبحان اللّه والحمد للّه واللّه أكبر ثلاثًا وثلاثين"، فقالت فاطمة: (فلم أجد بعد ذلك ما كنتُ أجدُ من مَشقّةٍ أو أذًى)[3].

دلالة الأمر في قوله ﴿وَسَبِّحْ﴾:

جاء الأمر لرسول اللّه ﷺ بالتّسبيح والتّحميد في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ وذلك للاشتغال بما يُؤنسُهُ ويسلّيه عن كلام أهل الكفر، ويُنسيه صدَّهم عنِ الحقِّ؛ والمعنى: فاشتَغِلْ بما يُؤنِسُك ويُبعِدُ عنك الحزن وضيق الصّدر[4].

الاشتغال بالتّسبيح يُؤنِسُ رسولَ الله عن أذى الكفّار

وعلى هذا يكون الأمرُ واردًا لمعالجة حالة الضّيق عند رسول اللّه ﷺ، يُؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: 97 - 98] الآية.

سرُّ التّعبير بالتّسبيح دون غيره:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالتّسبيح دون غيره في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنّه يَحمِلُ معنى التّنزيه عنِ الشّرك وسائر ما يَنسبون إليه سبحانه مِنَ النّقائص؛ ولأنّه يُطلَقُ على الصّلاة؛ لأنّها تَشتمِلُ على التّسبيح، ويجوز أن يكون المرادُ التّسبيحَ على الحقيقة بقول: سبحان اللّه والحمد للّه، لهذه المعاني آثر القرآنُ الكريمُ التّسبيحَ دون غيره.

تنزيه اللّه عنِ النّقائص والعيوب

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 113.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 671.
(3) أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (3113)، ومسلم، الحديث رقم: (2727).
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 367.

نكتة حذف مُتعلّق التّسبيح في المَوضِعَين:

الأمـر بمُطلَق التّسبيح لله ﷻ

حُذِفَ مُتعلّقُ التّسبيح في قوله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، والغرضُ من ذلك قَصدُ فِعل التّسبيح نَفسه؛ أي: فقُم بفعل التّسبيح ذاته، وهو تنزيه الله وملاحظة كماله ﷻ في كلِّ شيءٍ[1]، فالاشتغال بذكر الله في حدّ ذاته هو المطلوب، وفيه الشّفاء.

وفي هذا دلالة على أنّ التّسبيحَ - مع أنّه علاجٌ روحانيٌّ وبدنيٌّ - إلّا أنّه مطلوبٌ لذاته.

بلاغة المجاز في التّعبير عنِ الصّلاة بالتّسبيح:

الـصّـلاة هي أكـمـلُ صـور التّسبيح لله وحمده

والتّسبيح الوارد في قوله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في أوقاتٍ مَعلومَةٍ مع إحصائها وتتبُّعِها يدُلُّ على أنّ المقصودَ من فعل التّسبيح هنا الصّلاةُ، مَجازًا، مِن ذكر الجزء، وقَصدِ الكُلِّ[2].

ذلك لأنّ التّسبيحَ ركنٌ أساسٌ في الصّلاة؛ حيثُ تشتمِلُ مع القيام بأركانها على التّسبيح، بل المقصود الأوّل للصّلاة هو التّسبيح والحمد[3]، وهي الصّورةُ المُثلى لذكر الله ﷻ وحمده وشكره[4]؛ لذلك صحَّ إطلاقُ التّسبيح عليها، وممّا يُؤكِّدُ ذلك المعنى ذِكرُ الأوقات بعدها في قوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾، وهذا دليل على خصوصيّة الوقت، أمّا التّسبيحُ بمعناه العامّ فلا يُحَدُّ بزمنٍ.

دلالة اقتران التّسبيح بالحمد في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾:

الـجـمـع بـين إثـبـات الـكـمال لله وتنزيهه عنِ النّقائص

اقترن التّسبيحُ بالحمد في هذه الآية وفي آيات كثيرة في القرآن الكريم؛ وذلك لشدّة التّلازُم بينهما؛ فالتّسبيح يأتي للدّلالة على

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 371.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 452 - 453.
(3) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 841.

التّنزيه والبراءة من كلِّ عيبٍ، وهذا المعنى فيه إثباتٌ للمَحامِد والكمالات للّه ﷻ، وهذا هو الحَمدُ، وممّا يُؤكِّدُ ذلك الاقترانُ بينهما في الأذكار، نحو: سبحان اللّه والحمد للّه.

معنى الباء في قوله ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾:

التّلبُّس بحمد الله وتنزيهه

أمرَتِ الآيةُ بالتّسبيح بحمد اللّه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، والباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ﴾ تدُلُّ على المُلابسة[1]، ومصاحبة الحمد للتّنزيه[2]، إذ شِبْهُ الجملة ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديره: مُتلبِّسًا[3]، وتكون الجملةُ حينها حاليّةً[4]؛ أي: سَبِّحْ مُتلبِّسًا بحمدٍ لربّك.

ويجوز أن تكون الباء للآلة، والغرض من ذلك سَلبُ صفات النّقص؛ لأنّ مَن سَلَبَ شيئًا فقد أثبَتَ ضِدَّهُ، وأضدادُ صفاتِ النّقص صفاتُ الكمال؛ فمَن نَزَّهَهُ سبحانه فقد أثبَتَ صفاتِ الكمالِ[5].

دلالة التّعبير بالحمد دون غيره:

أفلا أكون عبدًا شكورًا

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالحمد دون غيره في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لِما يحمِلُهُ من معنى العموم، فيدخل فيه الشّكرُ، ويكون المرادُ الامتِنانَ على النّبيّ ﷺ بما منحَهُ من نعمة النّبوّة والرّسالة والهداية إلى الطّريق المستقيم من بين قومه حتّى جعلَه إمامًا للنّاس في الهداية؛ فالمحمودُ عليه الهدايةُ والتّوفيقُ.

ولأنّ التّسبيحَ هو الصّلاةُ على رأي، والصّلاة مُشتمِلَةٌ على الحمد، لذلك كان لفظُ الحمد يحتمِلُ المعنى العرفيَّ والمعنى الشّرعيَّ.

سرُّ تقديم التّسبيح على الحمد في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾:

قُدِّمَ التّسبيحُ الّذي يَحمِلُ معنى التّنزيه عنِ النّقائص؛ لأنّه من

(1) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 590.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4810.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 96.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 282.

باب التّخلية، وثُنّي بالحمد وهو الثّناء؛ لأنّه من باب التّحلية، ومعلوم أنّ التّخليةَ مُقدَّمةٌ على التّحلية.

فائدة إضافة الحمد إلى لفظ الرّبوبيّة:

أُضيفَ الحمدُ إلى لفظ الرّبوبيّة في الآية: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على معنى اللّام، وجُوِّزَ في هذه الإضافة أن تكون من إضافة المصدر إلى الفاعل؛ لأنَّ الحمدَ الحقَّ الكاملَ حمدُ اللّه تعالى نفسَه، أو من إضافة المصدر إلى المفعول والباء للمُلابسة، أو من إضافة الاختصاص بأن يكون الحمدُ بمعنى المَحامِد[1].

استحضار عطاءات الرّبوبيّة في كلّ المَناحي

وفائدة هذه الإضافة هي استحضار معنى الرّبوبيّة حين حمدِ اللّه ﷻ، فوَصفُ الرّبوبيّة يعني الرِّعايةَ والقِوامةَ، ويعني المُلكَ والولايةَ، فاحمَدْ ربَّكَ الّذي بلَّغَك كمالَك هدايةً وتوفيقًا[2].

دلالة كاف الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾:

كمال العناية الرّبّانيّة للرّسول ﷺ

تدُلُّ كافُ الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، والمراد نبيّنا ﷺ، على كمال العناية والتّثبيت، فهو ربُّ محمّدٍ ﷺ الّذي لا يُسْلِمُه ولا يُضيّعُه، وهو الّذي أيّدَهُ بالبيِّنات والهدى، وهو الّذي أخَّرَ الهلاك بكلمةٍ منه، فسبِّحْه يا محمّدُ واحْمَدْهُ بما يستحِقُّه، مُعترِفًا بأنّه مولاك ووليّك[3].

فائدة التّعبير بالظّرفيّة ﴿قَبۡلَ﴾:

تجنُّبُ وقت طلوع الشّمس وغروبها

ذَكَرَ اللّهُ تعالى وقتَ طلوع الشّمس وغروبها مَصحوبًا بظرف ﴿قَبۡلَ﴾ في قوله: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾؛ بمعنى: أنّ تسبيحَك وحمدَك سيكون مُحدَّدًا ومَظروفًا في أوقاتٍ؛ هي: قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها، لا حين طلوع الشّمس ولا حين غروبها؛ لأنّه وقتٌ مُنِعَت فيه الصّلاة، فاتّجَه التّحديدُ إلى وقت صلاة الفجر والعصر، حتّى لا يُظَنُّ التَّعلُّق بالشّمس، بل بربّ الشّمس.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 282.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 588.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453.

وعلى هذا يكون المرادُ بالتّسبيح الصّلاةَ، وإلّا فأمرُ التّسبيح على العموم لا يُوجدُ فيه منعٌ إلّا في حالاتٍ ذكرَتها السّنّةُ المُطهَّرةُ.

نكتة تقديم ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ على ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾:

انـطـلاق حياة المؤمن بالصّلاة وانتهاؤها كذلك بالصّلاة

قَدَّمَتِ الآيةُ ذِكرَ وقت طلوع الشّمس على وقت غروبها، ونكتة هذا التّقديم هو انطلاق الحياة؛ لأنّ طلوعَ الشّمس يعني بدايةَ اليوم الّذي تَظهَرُ فيه حركةُ الإنسان، وأوّل شيءٍ يَشتغِلُ به ينبغي أن يكونَ التّسبيحَ؛ لذلك جاءَتِ الآيةُ، وإنْ كان خطابُها للرّسول ﷺ إلّا أنّه أمرٌ مُوَجَّهٌ للأمّة أيضًا أن تبدأ يومَها بالتّسبيح والتّحميد لله بمعناه العامّ والخاصّ، وليكونَ أوّلَ ما يبدأُ به الإنسانُ يومَهُ الصّلاة، ثمّ يُتِمُّ يومَه بالصّلاة أيضًا، وذلك وقت غروب الشّمس.

سرُّ التّعبير بطلوع الشّمس عنِ الفجر:

دلالته على وقت صلاة الفجر

جاءَ التّعبيرُ بطلوع الشّمس عنِ الفجر باعتبار الغَلَبة؛ لأنّ كلَّ ما ذُكِرَ قبل طلوع الشّمس كان المرادُ به الفجرَ، وإنْ كان عامًّا بحسب اللّغة لِما قبل الفجر[1]، وممّا يُذكَرُ في سرّ التّعبير بطلوع الشّمس دلالتُه على أنّ وقتَ صلاة الفجر إلى قبل شروق الشّمس، بينما يدُلُّ الشّروقُ على وقت بزوغ الشّمس، فلا تَصِحُّ الصّلاةُ فيه.

دلالة الإضمار بعد الإظهار:

وضـــوح دلالـة الـضّـمـير على الشّمس

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار عنِ الشّمس في قوله: ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾، ولم يقُل: (قبل غروب الشّمس)؛ لسبق ذكرِها في وقت طلوعها، فناسب إضمارها في وقت الغروب، ولأنّها المقصودة دون غيرها؛ لذكرها قريبًا، ولعدم اشتباهها بشيءٍ آخرَ في هذا المَوضِع، وإذا كانَتِ الآياتُ قد قصدَت إلى تَتَبُّع الأوقات هنا بشكل مُسهِبٍ فقد ناسبَها الإضمارُ لكلّ ما هو بيّنٌ واضحٌ.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 454.

ولأنّ الإضمارَ فيه خفاءٌ، وهذا مُناسِبٌ لاختفاء نور الشّمس عند غروبها؛ فكأنّ التّعبيرَ بالإضمار يصوِّرُ غيابَ نورها استعدادًا لدخول اللّيل.

دلالة (أل) في ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾:

الشّمس المَعهودة لدى الخَلق

جاء ذكرُ الشّمس في قوله سبحانه: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ مُعرَّفةً بـ(أل)، وتعريفُها بـ(أل) هنا يَحمِلُ على العهد إذ هي الشّمس المَعروفة لدى الخَلق، والّتي تتعلَّقُ الأرضُ بها دورانًا وتحديدًا للأوقات والفصول وغيرها مِنَ التَّعلُّقات، لأجل ذلك قُصِدَت شمسٌ واحدةٌ مَعروفةٌ مَعهودةٌ، ولم يَحتَج ذلك إلى تبيين.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾:

دلالته على وقت صلاة العصر

دلَّ التّعبير بقوله: ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ على الظّهر والعصر، وهذا بانضمام العُرف والقرينة؛ لأنّهما من آخر النّهار، أو العصر وحدَه، إذِ المُتبادَرُ القبليّةُ القريبةُ؛ فحينئذٍ لا يَدخُلُ وقت الظّهر[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾:

تواصل الأوقات يلزَمُ فيه الاشتراك

دلَّتِ الواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ على الأوقات المذكورة أوّلًا في الآية؛ ليربطَ ذلك بذكر الأوقات الّتي أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ وأمّتَه بالصّلاة فيها، فكان مُؤدَّى العطف أنْ: سبّح بِحمدِ ربِّكَ مِن آناء اللّيل، وفي الأوقات السّابق ذِكرُها.

دلالة التّعبير بـ ﴿وَمِنۡ﴾ دون (في):

تخصيص بعض أوقات اللّيل بلزوم التّسبيح وأداء الصّلاة

دلَّ التّعبيرُ بـ ﴿وَمِنۡ﴾ في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ دون (في)؛ لأنّها تدُلُّ على التّبعيض[2]، والّتي تُشعِرُ بأوقاتٍ مَخصوصَةٍ لها مزيدُ أهمّيّةٍ[3]، وهي وقت صلاة المغرب وصلاة العشاء، وليس مُطلَقَ ساعات اللّيل[4]؛ لذلك لم يأتِ التّعبيرُ بالظّرفيّة.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 454.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 368.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 97.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 233.

ويجوز أن تكون (من) ابتدائيّةً مُتعلِّقةً بقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾، ويكون المعنى: فسَبِّحْ ابتداءً من وقت المَغرب والعشاء[1].

سرّ تخصيص هذا الوقت بالذّكر:

خصوصيّةُ آناءِ اللّيل بمزيد العبادة

جاء تخصيص هذا الوقت ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ بالصّلاة والتّسبيح؛ وذلك لِما لعبادة اللّيل مِن أثرٍ، فالإنسانُ فيه مُستريحٌ ليس كالنّهار وقت النّشور[2]، وأحسنُ ارتياحٍ هو أن يَرتاحَ المُؤمِنُ إلى ربِّه، ويَطمئنَّ بذكره، ولذلك عَمَّمَ في آناء اللّيل، وخصَّصَ أطراف النّهار بالذّكر.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ دون ساعاته:

أهمّيّة عبادة السَّحر

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بقوله: ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ دون ساعاته؛ لأنّ لفظَ السّاعات يَصدُقُ على كلِّ أجزاء اللّيل مِن أوّله إلى آخره، بخلاف (آناء) فهو يُطلَقُ على السّاعات المُتأخِّرة مِنَ اللّيل؛ لأنّه من أنيتُهُ؛ أي: أخَّرتُهُ، والتّأنّي التّأخير إلى وقت آتٍ؛ لذلك كان التّعبيرُ بآناء اللّيل هو المُناسِبَ لهذا التّخصيص.

غرض تقديم الظّرفيّة ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ على فعل التّسبيح:

الإيذان بخصوصيّة آناء اللّيل، وعظمة شأن الصّلاة فيها

تمَّ تقديمُ الظّرف ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ على فِعل التّسبيح في قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، والغرضُ من ذلك هو مَزيدُ الاهتمام بهذا الآناء[3]، ويكون ذلك من باب حصر الكمال فيه، ولمزيد الفضل[4] لهذا الوقت، وهو وقت اللّيل الّذي يَسكُنُ فيه الإنسانُ مِن أشغال النّهار، فيكون وقتَ التّعلُّق باللّه وحدَهُ[5]، فالقلبُ فيه أجمعُ لِتوافُقِه مع اللّسان والسّمع والبصر في ساعات اللّيل، والنّفسُ فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 338.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9454.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453 - 454.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4811.

أميلُ إلى الاستراحة، فكانَتِ العبادةُ فيه أشقَّ، لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾ [المزمل: 6].

كما أنّ في ذلك إيذانًا بعظمة شأن صلاة اللّيل[1].

وممّا يُؤكِّدُ ذلك أنّ الآيةَ لم تكتفِ في الأمر بأدائها بالفعل السّابق ﴿وَسَبِّحۡ﴾ وعطفِها على ما سبق، بل قَدَّمَتِ الظّرفيّة ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ﴾، وأخَّرَتِ الفعلَ ﴿فَسَبِّحۡ﴾ بعدها[2]، ويجوز أن تكون مفعولًا لفعلٍ مُقدَّرٍ يُفسِّرُهُ ﴿فَسَبِّحۡ﴾، فيكون التّقدير (وسَبِّحْ من آناء اللّيل فسَبِّحْ)، وكلُّ ذلك للدّلالة على مزيد الفضل والاختصاص لهذا الوقت[3].

دلالة (أل) في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

استغراق لجنس اللّيل فهو مَحِلٌّ للذّكر

جاءَ ذكرُ اللّيل في قوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل)، وهي (أل) الجنس الّتي تفيدُ الاستغراق، فاللّيل هو أيُّ ليلٍ كان، فإذا كنتَ في أيِّ ليلةٍ فإنّ في آنائها زادًا مِنَ القُربى إلى الله، فاغتَنِمها بإقامة الصّلاة ومُناجاة الله.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

كلّما جنّ عليك اللّيلُ واشتدَّ ظلامُهُ فاضرَعْ إلى مولاك بالتّسبيح والتّحميد

الفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾ لإفادة معنى الشّرط، والتّقدير: (وما يكُنْ مِن شيءٍ فسَبِّحْ)؛ لأنّه لمّا قُدِّمَ عليه الجارُّ والمجرور شابَهَ تقديمَ أسماءِ الشّرط المفيدة معنى الزّمان؛ فعُومِلَ الفعلُ مُعامَلةَ جواب الشّرط كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: 79][4].

فائدة عطف ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾:

تعلُّقُ فعل التّسبيح بأطراف النّهار

عُطِفَ على ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ﴾ وقتٌ آخر للعبادة، وهو ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، وذلك بواو العطف، وفائدة هذا العطف هو إظهارُ تَعلُّقِ هذا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 367.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 589.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 455.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 338.

الوقت بالفعل، وهو التّسبيح[1]، فيكون تقديرُ العبارة: سَبِّحْ بحمد ربِّكَ أطرافَ النّهار.

نكتة إضافة الأطراف إلى النّهار:

تخصيص وقت الصّلاة باجتماع أطراف النّهار

إضافةُ أطرافٍ إلى النّهار في الآية ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ هي إضافةُ تَخصيصٍ[2]، لأنّ أطرافَ النّهار تتميَّزُ عن وقت طلوع الشّمس ووقت الغروب، لِحَملِ الكلام البليغ على التّأسيس قبل التّأكيد، ولذلك فهي أوقاتٌ خاصّةٌ بالنّهار لا في نهاياته.

وذهب آخرون إلى أنّها تكريرٌ لصلاتي الصّبح والمَغرب لأنّ الطّرفَ حقيقةٌ فيهما؛ إذِ المَغربُ ينتهي به النّهارُ، والصّبحُ ما يَبدأُ به النّهارُ على الوجه الشّرعيِّ في تعريفه.

ولعلّ أحسنَ ما يَنطبِقُ عليه الطّرفان هو وقتُ انتصاف النّهار، حيثُ يتمُّ التَّحوُّلُ مِنَ الطّلوع إلى الدّلوك[3]، والواضحُ أنّ هذا التّحديدَ يَخصُّ صلاة الظّهر بالاعتناء، حيثُ اجتماعُ طرفي النّهار؛ انتهاءُ الطّرف الأوّل وبدايةُ الطّرف الثّاني[4].

دلالة (أل) في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ للجنس:

في كلّ نهارٍ طرفان يَلزمُ تسبيحُ الله فيهما

وجاء ذِكرُ النّهار في الآية ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل)، وهي(أل) الجنس، فيَصِحُّ إفرادُه أو جمعُهُ، فلكلِّ نهارٍ طرفان، وكون (أل) للجنس هنا هو الّذي يُبرِّرُ ورودَ الأطراف بالجمع، ويهدي إلى أنْ يَغتَنِمَ المُؤمنُ كلَّ نهارٍ بأن يُسبِّحَ ربَّه عندها[5].

سرُّ التّعبير بالجمع ﴿وَأَطْرَافَ﴾ في مَوضِع التّثنية:

الإشارة إلى أوقات الصّلوات المكتوبة

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالجمع ﴿وَأَطْرَافَ﴾؛ لأنّ صلاةَ الظّهر

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 589.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 454.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دلك).
(4) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 168.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 70.

في آخر طرف النّهار الأوّل وفي أوّل طرف النّهار الآخر؛ فهي في طرفين، والطّرف الثّالث غروب الشّمس؛ لذلك قيلَ أطراف؛ على أنّ المُرادَ بها ذِكرُ صلاتي الظّهر والمَغرب معًا[1].

ويجوز أن يُطلَقَ الجمعُ على المُثنى عند أمن اللَّبسِ، فإنّ مِنَ المعلوم أنّ للنّهار طرفين لا أطرافًا، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التّحريم: 4]، والّذي حسَّنَهُ هنا مُشاكَلةُ الجمع ﴿وَأَطْرَافَ﴾ للجمع (آناء) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾، ويكون المرادُ بها حينئذٍ صلاةَ الظّهر فقط[2].

نكتة فصل قوله ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾:

تـمـام تـعـلُّـقِ الـرّضى بإقامة الصّلاة

لم تُعطَفْ جملةُ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ على ما سبقها مِنَ الجمل، ونكتة الفصل هنا هو ترتُّبُ الرّضى عنِ الائتمار بالصّبر وإقامةِ الصّلاة في تلك الأوقات، فتكون جملةُ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ كاملةَ التَّعلُّق بفعل التّسبيح[3]؛ أي: وسَبِّحْ بحمد ربِّك لعلّك ترضى؛ والمعنى: سَبِّحْ في هذه الأوقات رجاءَ أن تنالَ من عطاء الله ﷻ ما يُرضيك بها فتَرضى نفسُك[4].

فائدة حذف مُتعلَّق ﴿تَرْضَىٰ﴾:

إفـادة الـعـمـوم والتَّنوّع

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعل ﴿تَرْضَىٰ﴾؛ لإفادة العموم والتَّنوّع فيما يَرضى به رسولُ الله ﷺ في خدمة دعوته؛ فالغالِبُ أنّ الرّضى سيكون بما يَخدُمُ الحقَّ، ويحقِّقُ النّصرَ، ويُمكِّنُ الدّينَ[5]، ويمكن أن يكونَ للحذف فائدةٌ أخرى، وهي أن يكونَ الرّضى نفسُهُ هو المقصودَ، فلعلّك تنالُ الرّضى، والرّضى دَرَجاتٌ، أدناها أن ترضى فلا تَسخَطُ، وأعلاها أن يَرضى عنك ربُّك فترضى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 233.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 18/ 84.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 590.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 590.

نكتة التّعبير بالمضارع في ﴿تَرْضَىٰ﴾:

تجدُّدُ الرّضى بالاستمرار في الصّبر والذّكر

وردَ التّعبير عنِ الرّضى في الآية: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بالفعل المضارع؛ للدّلالة على تجدُّد الرّضى بتجدُّدِ الصّبر والذّكر، واستمرارُ الرّضى هو باستمرار الصّبر والذّكر، فكأنّ التّعبيرَ بالمضارع يشيرُ إلى المُلازَمة: كلّما صبرتَ وذكرتَ ربَّك نِلتَ الرّضى.

غرض الإتيان بحرف الرّجاء (لعلّ):

الطّمعُ في الرّضا دافِعٌ للعمل

استُعمِلَ حرفُ التّرجّي (لعلّ) في الآية: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، مَنسوبًا إلى المُخاطَب؛ للحَثّ والتّرغيب في أن يَطمعَ المُخاطَبُ إلى الرّضى[1]، فيكون دافعًا له لأداء ما أُمِرَ به، فالرّجاء ليس مِنَ الله ﷻ، حاشاه، بل مِنَ المُخاطَب بها[2]، وهو أقربُ إلى الشّرط منه إلى الرّجاء، فالمولى يُرَجّي عبادَه، ويُحفِّزُهم بأنّ مَن صَبَرَ وصلَّى أبلَغتُهُ درجةَ الرّضى، فاطمحوا إلى تلك الدّرجة[3].

بلاغة توجيه القراءات القرآنيّة المُتواترة في ﴿تَرْضَىٰ﴾:

لعلّك تُرضَى فتَرضى

ورد في قوله تعالى: ﴿تَرْضَىٰ﴾ قِراءتان مُتواتِرتان، ولكلٍّ قراءةٍ توجيهُها وبلاغتُها، فقد قرأ شعبة عن عاصم والكسائيّ: ﴿تُرْضَىٰ﴾ بضمّ التّاء، بينما قرأ باقي القرّاء ﴿تَرْضَىٰ﴾ بفتح التّاء[4].

وتوجيه قراءة ﴿تُرْضَىٰ﴾ بضمّ التّاء على أنّها على ما لم يسمَّ فاعلُهُ، والّذي قام مَقامَ الفاعل هو النّبيّ ﷺ، والفاعل هو الله جلّ ذكرُهُ، تقديره: لعلّ اللّهَ يُرضيك بما يُعطيك يوم القيامة، و(لعلّ) مِنَ الله واجبة[5].

وأمّا قراءة ﴿تَرْضَىٰ﴾ بفتح التّاء فمِنَ الفعل تَرْضَى اللّازم، ويكون

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 97.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 273.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 114.
(4) ابن أبي مريم، المُوضَح، ص: 758، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 322.
(5) مكّيّ، الكشف: 2/ 107، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 97.

المعنى: لعلّك تُثابُ على تلك الأعمال بما تكون راضيًا[1]؛ أي: اللّه يعطيك إكرامًا لك حتّى ترضى عطيّتَه وثوابَه إيّاك أو تَرضى بالشّفاعة والثّواب، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضّحى: 5][2].

والقراءتان تُؤكِّدان معنى الرّضا ولا اختلافَ بينهما؛ لأنّ اللّه تعالى إذا أرضاه فلا شكَّ أنّه يَرضى، وأنّه إذا رَضيَ فقد أرضاه اللّه، وبذلك تُؤكِّدُ كلُّ قراءةٍ معنى القراءة الأخرى؛ فإنّ مُنتهاهما واحدٌ، فإنّك إذا رَضيتَ فقط أُرضيتَ[3].

فلا بدّ في القراءتين أن يُعطى محمّد ﷺ في القيامة حتّى يَرضى، ويُزاد فوق الرّضى، ولا يَرضى ﷺ أن يُعذَّبَ أحدٌ من أمّتِه مُخلَّدًا، فهذه الآية أرجى آيةٍ في كتاب اللّه لأمّة محمّد ﷺ[4].

المتشابه اللّفظيّ:

تشابهَت هذه الآيةُ مع مَوضِع سورة ق في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [ق:39]، ومع سورة الطّور في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨﴾ [الطّور: 48].

ومِنَ التّشابُه أيضًا قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الطّور: 48]، فإنّه مَبنيٌّ على المُتقدِّم فيهما من قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطّور: 48]، واتّصاله به بيّنُ الوضوح؛ لأنّ المُرادَ أمرُهُ ﷺ في الصّبر على أذاهُم في قولِهم كاهِنٌ ومَجنونٌ وساحِرٌ إلى غير ذلك، ممّا نزَّهَ اللّهُ نبيَّهُ عنه؛ لذلك أمرَهُ اللّه أن يَستعينَ بصبره وصلاته على تحمُّل أذاهم[5].

وأمّا انفرادُ مَوضِعِ الطّور بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨﴾ [الطّور: 48] فلأنّ الآيةَ يسبِقُها قولُهُ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥﴾ [الطّور: 45]، ولمّا كانَتِ اليقظةُ مِنَ النّوم شبيهةً بالبعث، ودالّةً عليه، ناسبَها تخصيصُها بالذّكر بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨﴾ [الطّور: 48].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 70.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 234.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 196.
(4) مكّيّ، الكشف عن وجوه القراءات السّبع: 2/ 108.
(5) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/ 343 و344.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآناء والسّاعات:

الآنَ والسّاعة يدلّان على الزّمن، فهي أوقات، ولكنّ (الآن) غيرُ مُحدَّد[1]، بخلاف السّاعة، فهي وقتٌ، باعتبار مُدّتها وانقضائها[2]، لذلك كانَتِ السّاعةُ مَوعِدًا زمنيًّا، وقُسِّم اللّيلُ إلى ساعاتٍ؛ أي: أجزاء[3].

الآناء اشتغال بحضور الأوقات، والسّاعات اشتغال بتحديدها وانقضائها

ولعلّ في إشراب (الآن) معنى الأوان دلالةً على الحاضر؛ أي: آنًا بعد آنٍ، والنّظر إلى (الآن) باعتبار الوقوف عند ما يَحويه، بينما يُنظَرُ إلى السّاعة باعتبار حصرِها للزّمان وتقسيمه ومُضيّه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 576.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 116.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 21/ 241.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»